

أحمد رجب شلتوت

حالة شجن



رواية



حالة شجن

منشورات «الف ياء AlfYaa»

المؤلف: أحمد رجب شلتوت

الكتاب: حالة شجن (رواية)

صدرت النسخة الرقمية: تشرين الثاني/نوفمبر 2026

الطبعة الأولى 2020 الدار الثقافية التونسية

- الناشر: «ألف ياء AlfYaa»
- الموقع الإلكتروني: www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub و/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ«ألف ياء AlfYaa»
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- «ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب



- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود

أحمد رجب شلتوت

حالة شجن

رواية

الرواية الفائزة بمسابقة

إحسان عبد القدوس 2008

منشورات «ألف ياء» AlYaa

أرى بلداً غريباً
لم أشاهد مثله منفى،
ولا وطننا
ولا أعلم كيف اتخذته أمة سكنا

"أحمد عبد المعطي حجازي"

(i)

كان الجو غائماً في البيت، فالأم - تؤيدها الجدة بقوة - توبخ الجميع لتقصيرهم في حق البنات.

أردت أن أعترض، أن أقول لها أن البنات لم يعدن بناتاً، أصبحن أمهات منذ سنوات عدة، لكن لزمّت الصمت، فالأم - أمهن - تصر على أن لهن حقاً علينا، ولا بد أن نؤديه مهما كانت قدراتنا. والجدة - مثل الأم - ضجرة متبرمة، لكنها تحافظ على هدوئها، حتى حينما تقسو وتوجه لنا اللوم:

- أنتم ثلاثة رجال، وهن أيضاً ثلاثة، فهل كثير على الرجل منكم أن يتحمل مواسم أخت واحدة، لم أطق صبراً، حاولت مجادلتها، قلت أنهن أصبحن أمهات، وهذا ليس أول أو ثاني شهر رمضان يأتي بعد زواج أصغرن.

ترد في حسم:

- هذه عادة ولن نقطعها، ولتعلم يا كبير إخوتك أن قطع العادة مجلبة للنحس.

- لكن المواسم لا تنتهي، في كل شهر هجري موسم، والمواسم تتلاحق سراعاً.

محمد يلتقط الخيط، لا يضيع الفرصة، يحاول أن يحصى المواسم:

- يوم 27 رجب، ثم 15 شعبان، و بعده شهر رمضان في أوله ياميش ومكسرات وفي منتصفه الكنافة والمشبك، وبعده عيد الفطر ولا بد من العيدية وقبلها إرسال الكعك ولوازمه، هذا غير مواسم القصب والغطاس مرة، ثم البطيخ مرة، وهكذا حتى نعيد الدورة.

تقاطعه الأم:

- أعرف ما تريد قوله، ولست بحاجة لأن تذكرني، أضف أيضاً لحم عيد الأضحى، وحلاوة المولد النبوي، و...

يحاول محمد أن يتكلم لكنها لا تدع له الفرصة، تتهمنا:

- هذه عاداتنا وكل الناس يفعلون ذلك، أما كلامكم فهو حجج من رفع يده عن مسؤوليات عائلته، لقد انشغلت يا بن بطني بنفسك وبزوجتك عنا.

يحاول محمد أن يبعد كلامهما اللوام عنه، يشير باتجاه أخيه، قبل أن يواصل كلامه:

- زوجته ستلد خلال أيام، فمن أين له بتكلفة الولادة إن أنفق

قروشه على اليايش

تغيظه الأم:

- اسكت خالص، الخلاصة إنك أنت وابني الكبير جمال بتوع
نسوانكم، والشهامة ليست بالعمر، بطني لم تحمل إلا غريبا. هو
أصغركم حقا لكنه أكثركم شهامة ومروءة.

تؤمن الجدة على كلامها ثم تختتم بالدعاء:

- ربنا يرده سالماً

* * *

لكن غريبا لم يعد، ...

فانت الساعات تلو الساعات على مواعده ولم يعد، ...

مع فجر اليوم خرج - كما يفعل كل يوم - على الكتف يحمل
الكرتونة ويغادر مصحوباً بدعوات الأم والجدة. ربما ترافقه
الدعوات حتى باب المسجد، وبعد الصلاة يقصد وجه الرزاق
الكريم.

قال وهو يغادر: كان اليوم متعبا:

-. السوق اليوم بعيد والكرتونة ثقيلة

* * *

بالأمس اشترى الكرتونة فارغة من غندورة بائع الفاكهة. دفع
فيها جنيهين كاملين، فتحها فشمنا رائحة التفاح.

ساعدته في إعداد بضاعته. فتح كرتونة الأكواب الزجاجية. وضعها إلى جوار جردل الماء. يغسل الأكواب ويجففها، ثم يناولها لي. أضع كل ستة أكواب في كيس، أغلق الكيس جيداً وأناوله لزوجتي، فمهمتها رص الأكياس في الكرتونة التي كانت للتفاح. مازالت الكرتونة تحتفظ ببعض الرائحة.

بعد أن ينتهي غريب من مهمته يقوم بإحصاء الأكواب المكسورة، ثم يزفر بأسى:

- ستة وربع خسارة.. خمسة عشر كوباً مكسوراً في كرتونة واحدة.. كثير والله، نصف المكسب ضاع قبل أن أبيع شيئاً.

سألني عن عدد الأكياس التي رصتها زوجتي، أبلغته، فراح يتمتم وهو يحسب التكلفة النهائية لكل نصف ستة قبل أن يحدد سعر البيع. ولما انتهى من الحساب أغلق الكرتونة، أحكم ربطها بالحبل، ثم صنع بالحبل يدا يرفع منها الكرتونة، نقلها إلى جوار الحائط، وقام لينام.

* * *

هذا ما يفعله غريب كل ليلة، وفي كل فجر يخرج حاملاً بضاعته ليعود مع العصر منهكاً. قد يبكر قليلاً أو يتأخر قليلاً، لكن لم يحدث قبل اليوم أن غربت الشمس قبل أن يعود.

* * *

(ب)

أعادت الأم صلاة المغرب مرتين، قالت إن الشيطان وخز قلبها وأقلقها على الغائب ليفسد صلاتها، الجدة أيضاً، ولنفس السبب أكثر من التمتمة عقب الصلاة، كانت تدعو بإلحاح لتدراً خطراً لا نراه، لكن قلبها يشعر بدنوه.

والأب أخلف عادته اليومية، صلى المغرب ولم ينتظر بالمسجد حتى صلاة العشاء، أسرع بالعودة، سمعته يسأل عن غريب قبل أن يخطو داخلا الدار، وسمعت الجدة تجيب بالدعاء: - ربنا يجبر خاطره ويرده غانماً سالماً.

دلف الأب إلى الحجرة. كانت الأم تبكي. حاول طمأننتها، لكنه لم يفلح، فهو أيضاً قلق. يتشاغلان بالتليفزيون.

سألني إن كنت أعلم مكان سوق اليوم. أجبت بالنفي. أشعل سيجارة. شد نفساً عميقاً ثم رماها. أطلق الدخان وسعل.

داس السيجارة بحذائه وهو يغادر الحجرة، هتف بأعلى صوته منادياً على محمد، عاد للحجرة وهو يفرك أصابعه.

جاء محمد فأمره:

- شف لي أصحاب غريب.

- مررت ببيوتهم جميعا، سألتهم عنه، اليوم لم يره منهم أحد

- أما يعلم أحدهم أي سوق قصد اليوم ؟

- لا، لم يخبر أحداً بذلك.

- المشكلة أن أسواق يوم الأربعاء كثيرة

أضفت مؤكدا:

- فوق كثرتها هي أيضا متناثرة قبلي وبحرى.

راح محمد يعدد أسماء الأماكن التي تشهد أسواقاً يوم الأربعاء، استبعد أبى الزقازيق والمنصورة فغريب لم يذهب إليهما من قبل. أقصى مسافة قطعها كانت إلى أشمون.

قالت أمي أن قلبها يحدثها بأن أهل خطيبة غريب السابقة قد آذوه. ذكرت أنها بأنهم قوم مسالمون ولا يمكن أن يفكروا في الأذى، فضلا عن عدم حدوث شيء يدعوهم للانتقام، فهم الذين فسخوا الخطبة وأنهم العلاقة، فلا مبرر إذن لأن يضمرون له شرا.

تبكى قائلة:

- قلبي عليك يا ولدي، غريب طوال عمره وبخته قليل، منذ مولده وهو غير محظوظ.

ينفث أبى غضبه في التلفزيون. المتحدث منتفخ الوجنات يغيطه، يتهم غريبا بالتسول، يتحدث عن مثل الذين يمتنون

مهنته واصفاً إياها بالهامشية، وإنها أقرب إلى التسول منها إلى العمل، وراح يعدد أضرارها على الاقتصاد القومي لكن أبى لم يدعه يكمل ما بدأه، هتف في محمد:

- اقفل على ابن ال..... هذا.

ينفت دخان سيجارته بغیظ، ثم يكمل:

- تسول إيه وزفت إيه، يعني الشباب اللي مش لاقى شغل يفضل عاطل، والبيوت المفتوحة من هذه الأعمال تخرب. هذه الأعمال تخرب الاقتصاد القومي ولا تخربه سرقة أموال البنوك وتهريبها للخارج.

حاولت تهدئة الأب فلم يهدأ. أغلق محمد التليفزيون. ساد الصمت لأقل من دقيقة ثم واصل الأب صراخه:

- تعليم وأتعلم. دخل الجيش وخرج، وشغل مفیش، والسفر لم يعد سهلاً، قولوا لى يعمل إيه؟ يا عالم حد يقول لى يعمل إيه؟.. يسرق يعني، ولا يموت؟ ولا يعمل إيه؟

تضاحك محمد:

- اهدأ يا حاج، فالرجل لم يكن يقصد غريباً بكلامه

لم يرد الأب. مسح جبهته بكفيه، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، بصق إلى يساره وإلى يمينه ثم أشعل سيجارة أخرى. نفت دخانها باتجاه السقف. تابع فأراً يندس في شق بالحائط. هبطت عيناه إلى التليفزيون المغلق. بسرعة صعد بهما إلى صورة جمال عبدالناصر المعلقة على الجدار. توقف عندها قليلاً

ثم تجاوزها إلى صورته الشخصية. كان شاباً يرتدى الزي العسكري.

قال وهو ينفث دخان سيجارته:

- الصورة دي اتصورتها في سبتمبر 73، آخر يوم من آخر
إجازة قبل الحرب. قبل أول سحور...

لم يستدع كعادته ذكرياته عن حربي الاستنزاف والعبور، لم
يقرب السيجارة من شفتيه، ولم ينطق، فقط كان يرتجف في
صمت، ولما انطفأت سيجارته أشعل غيرها.

ولم يطل صمت الأم التي عاودت اتهامها لأهل خطيبته
السابقة.

* * *

(ت)

تعرف غريب على خطيبته السابقة في أحد الأسواق. كانا يلتقيان كل يوم أربعاء. بعد شهر فاتح الأب برغبته في الزواج منها. ظل يلح حتى لان الأب واقتنع بأن لا ضرر من زواجه بفتاة ليست من قريتنا. تذكر الأب صديقاً له من نفس قرية الفتاة. لم يره منذ خرجا من الجيش مع نهاية 1977. قرر أن يزوره، ويسأله عن أهل الفتاة، ولن يعلن رأيه بالرفض أو الموافقة قبل ذلك.

يومها صحبني الأب إلى قليب، ومنها أخذنا الميكروباص إلى القرية. ذكر اسم صديقه، سأل السائق عن البيت، فأنزلنا على رأس شارع، أشار باتجاه البيت:

- ثالث بيت إلى يمينك، بلكونته خضرا ومرسوم عليها جمل وسفينة.

قبيل الباب المغلق بنصف خطوة توقف أبي، حرص على ألا يكون في مواجهة الباب، نادى بصوت عال:

- يا حاج صالح. يا حاج صالح. قالها مرتين وقبل النطق
بالثالثة خرج من عمق البيت صوت رفيع:

- من؟

ابتسم أباي مطمئناً إلى أن صديقه القديم لم يزل حياً، والصديق
عاود السؤال:

- من بالباب؟

رد أباي:

- واحد يحبك

- حبايبي كثيرون فأيهم أنت؟

- صديق من أيام الجيش.

رأيت الصديق طويلاً جاحظ العينين، كان شاحباً ويزداد
شحوبه كلما ضحك. ضحكا كثيراً هو وأباي وهما يتذكران
الزملاء ونواديرهم، يستعيدان الحكايات بتفاصيلها الدقيقة، قد
يختلفان حول اسم القائل أو الفاعل لكن يتفقان على الحكاية
بتفاصيلها، ضحكا كثيراً وكأن عبوسهما السابق - بفرض أن
صديق أباي يتجهم مثله كثيراً - كان بسبب ادخارهما الضحك
لهذا اللقاء. لكن غادرتهما الضحكات وهما يترحمان على شهداء
الواء 25 مدرع.

اكتشفت أن ذاكرتيهما ممثلتان بأسماء وحكايات

الشهداء، ترددت كثيراً كلمات الحصار والسويس وجبل

عناقة. ولم يمه حديث الحرب إلا نقرات على الباب.

قال الرجل:

- أدخل يا جمال.

دخل شاب في مثل سنى، قال أبيه ضاحكاً:

- له نفس اسمك، وربما نفس عمرك.

صافحنا الشاب ثم خرج لدقيقتين قبل أن يعود حاملاً طبلية.
وضعها في منتصف الحجرة، فرد فوقها صحيفة قديمة.

خرج مرات كثيرة وفي كل مرة يعود حاملاً طبقتين. كل طبق بيد. ولما امتلأت الطبلية أحضر ورق الماء المثلوج وأغلق الباب.

* * *

تحدثنا كثيراً في موضوعات شتى، ولم يقل أبى شيئاً عن غريب وحكايته، فظننت أنه نسي الغرض الحقيقي من الزيارة، لكنه وهو يرشف الشاي فاجأني، وسأل صديقه عمن اختارهم غريب، تجشأ الصديق وهو يمتدحهم، تحدث عنهم كثيراً، الأب كان جندياً في الجيش، خرج بعد الحرب وفي ساقه أثر رصاصة أحدثت عرجاً خفيفاً، لم يؤثر كثيراً على رعايته لقراريطة القليلة، لكنه بعد أن كبر الأولاد وتعلموا لم يعد راغباً في الفلاحة، فباع قراريطة واشترى بئمنها ضعف عددها بالقرب من حافة الجبل، وهناك أقام مفحمة، ضحك عم صالح كثيراً،

وهو يقول لأبي:

- غبار الفحم صحيح عكر وشه، لكن قلبه لسه أبيض.

بعد أن شربنا الشاي أصر الرجل على أن يصحبنا إليهم،

حاول أبا التريث والتأجيل حتى زيارة أخرى، لكن صديقه
زجره مذكرا بأن خير البر عاجله.

* * *

(ث)

طالت فترة الخطبة لعام ونصف، ذلك كان مخالفا لما اتفق عليه أبي، الذي منح نفسه وغريب عاما واحدا في نهايته يتم الزفاف، مر العام وانتصف الذي يليه ولم ننه تشطيب الشقة، فضلا عما التزمنا به من جهاز العروس، لم يطق أهل الفتاة صبرا، لأموها لرفضها ابن عمها، كان رجلا فلم يعد من السعودية إلا بعد أن بنى بيتاً وادخر مالا، وافتتح مشروعا، امتدحوه كثيرا وعابوا في غريب، ولأموها، قالوا:

- رفضت لحكمك وآثرت الصايغ المفلس.

البنات بكت وطالبت غريبا بأن يفعل شيئا، أهلها أمهلوه شهرين إضافيين فقط، انتهيا فتوسط لديهم صديق أبي، منحونا شهرين آخرين وبعدهما ردوا الشبكة، حملها صديق أبي في زيارة مفاجئة، ونقل إلى أبي طلبهم بالألا يتصل غريب بابنتهم.

يومها بكى غريب، ولامتني أمي، لم ترحمني:

- منك لله يا كبير، يا خايب أنت السبب. أنت الذي خيبت

شقيقك حين شجعته على الرجوع من السعودية.

* * *

كان غريب دائم الشكوى في رسائله وتليفوناته من إذلال الكفيل له، بدا راغباً في العودة لكنه كان يخشى اللوم. لم يستطع اتخاذ القرار، الناس سيلومونه ويشككون في رجولته، وهل يكون رجلاً من يترك أكل عيشه ويلوذ بحضن أمه؟، قالوها عن سواه، فلن يجد من يرحمه، أراد أن يقول أحداً له عُد ليعود، فقلتها، لتنتهي حيرته وعذابه.

عاد ولم أستطع أن أجد له عملاً، كما توهم هو دون أن أعده بما لا أملك، ولم يجد في النهاية - مثله كمثل أغلب شباب أبو النمرس - إلا كرتونة، يملأها ببضاعة رخيصة أو بمنتجات زجاجية ويحملها عقب كل فجر ليدور بها على الأسواق.

* * *

(ج)

أخبرني محمد بأن جميع زملاء غريب توقعوا أن تكون الشرطة قبضت عليه، فالشرطة تقصد الأسواق، وكثيراً ما تقبض على الباعة الجائلين. خصوصاً في مثل هذه المواسم، يستعدون لقدم شهر رمضان بالتنكيد على مثل هؤلاء.

تركت أخي قاصداً هاني. كان صديقي قبل أن يصبح وكيلاً للنائب العام. آخر مرة زارني فيها كانت بعد زواجي بشهر، مر عليها عامان، يومها ظننته جاء مهنئاً لكنه جاء لغرض آخر. عرض على صفقة (هذه كلمته) تلاها

بالتأكيد على أن الشاب العصامي – كما كان يصفني دائماً - الذي لم يرث، ولم يهاجر، ولم ينحرف، لا بد له أن يستدين ليتم زواجه. أخبرني بمعرفته بأني استندت من أكثر من صديق لأستطيع إتمام زواجي. استاء لأنني لم ألجأ له، تكلم كثيراً عن واجب الصداقة وعن محبته لي، وفي النهاية أعاد على أذني كلمة "صفقة" قبل أن يعرض مشروعه (وهذه أيضاً كلمته)، ذكرني بكوني معاق وبأن الدولة ترعى أمثالي وتعفيهم من

جمارك السيارات المجهزة، قبل أن يذكر تفاصيل مشروعه، قال - ستشتري سيارة مجهزة وأدفع أنا ثمنها، ولا تنس أنني أستطيع إنهاء كافة الإجراءات بسرعة، وبمجرد أن تتسلم السيارة تتركها مقابل ألف جنيه مكسب. وحينما يحل الموعد القانوني تتنازل لي عنها (ضحك مستطردا) ألم أقل لك إنها صفقة، لكن لا تغضب منى ستوقع أولاً على إيصال أمانة بثمان السيارة، أنت رجل مؤمن والقرآن الكريم قال كما تعرف، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ،

أردت أن أنهى كلامه فقلت:

- صدق الله العظيم.

رفضت الصفقة فآلح وضاعف المبلغ، لم أترجع فغادرني

غاضباً ومن يومها لم يزرني.

* * *

استمع هاني لي، وأبدى تعاطفه. شكرني لأنني تذكرته، معنى ذلك أنني مازلت أعتبره صديقاً، وهذا أسعده، وعد بأن يفعل شيئاً من أجل غريب. طالبني بأن لا أتعب نفسي في رحلة بحث لا طائل منها، وهو سيعمل اللازم، اتصالاته تكفيني مشقة البحث.

* * *

حكيت لعمد فلم يصدق، قال إنه كان يستطيع إنهاء المشكلة قبل أن أغادره وبالفعل لن يكلفه الأمر غير مكالمة تليفونية.

اتفقنا على أن نصبر حتى الفجر، لا نستطيع أن نفعل شيئاً قبل الغد، وإن لم يعد غريب نخرج للبحث عنه، اتفقنا على أن يبحث عنه محمد في أسواق الوجه القبلي، بينما أقصد أنا أسواق الوجه البحري.

وافق الأب على الاقتراح، وطالبنا أنا ومحمد أن نتصل كل ساعة لنعلمه بنتائج البحث لكن الأم لم توافق، صرخت فينا ملتاعة:

- ألن تفعلوا شيئاً الليلة، وهل أحتمل حرقه قلبي حتى الصباح؟

* * *

(ج)

لم ينم أي منا ...

كانت زوجتي تبكي وتتمتم بالدعاء، بينما تشاغلتي بإعادة
رص الكتب في المكتبة، أخرجت كتاب "الدرب الآخر" ذكرني
به أستاذ الاقتصاد منتفخ الوجنات، الذي أغلقنا التلفزيون بسببه.
وجدت ورقة من الكتاب مثنية.

(هل أوحى لي بحال أخي غريب حينما قرأت الكتاب لأول
مرة؟)

فردت الورقة وقرأتها بصوت عال لتسمع زوجتي:

" ... مع امتلاء المدينة بالناس، والاستيلاء تدريجياً على
المساحات الفضاء فيها لأغراض الإسكان غير الرسمي، بدأت
أنشطة اقتصادية تأخذ مساراً مماثلاً في تطورها. وكانت التجارة
هي أحد هذه الأنشطة".

* * *

سألتني زوجتي فحكيت لها عن الكتاب، فقالت هل مؤلفه مصري، فقلت إن اسمه "هرناندو دي سوتو"، وهو من بلد بعيد اسمه بيرو، هو ليس مصرياً، ولم يسبق له أن سمع بأبي النمرس وشبابها، وما يحملون من هموم وكراتين.

صمتت زوجتي وطفحت عيناها بالأسى، فواصلت القراءة:
" ... وكان هذا إيذاناً بميلاد التجارة غير الرسمية التي تجري أساساً في الشوارع حيث تعرف بالبيع المتجول
(...)

"... ومن ناحية أخرى بدأت الأسواق غير الرسمية عندما سعى الباعة العاملون في الشوارع إلى وضع حد لحالة عدم الأمان التي يعملون فيها".

* * *

لاحظت زوجتي مدى تأثري، فحاولت أن تحول دون استمراري في القراءة، ذكرتني بأنني لم أتناول الدواء المخفض للضغط. ناولتني كوب ماء وعلبة الدواء، ابتلعت قرصاً، وواصلت القراءة.

" ... إن الوضع غير الرسمي ليس هو أفضل العوالم الممكنة، إنه يتضمن تكاليف هائلة، وإن الناس يحاولون تعويض هذه التكاليف بكل أنواع الطرق المبتكرة وإن كانت قاصرة. وإن خرق القانون ليس أمراً مستحباً في نهاية المطاف، وإن كل ما

نراه من فوضى وإهدار للموارد وعمليات للتصدي، وأعمال يومية تتسم بالجرأة ما هي إلا محاولات يائسة ومغامرة من أصحاب الوضع غير الرسمي لوضع نظام بديل لذلك النظام الذي ينكر عليهم حمايته".

* * *

مدت زوجتي يدها باتجاه الكتاب، لم أغلقه وأبعدت يدها، فعادت مطالبتها لي بأن أغلق الكتاب لأستريح قليلاً، أدرك أنني لن أنام، فواصلت القراءة:

"... وترجع أزمة مؤسساتنا القانونية جزئياً إلى إنها فقدت تدريجياً مصداقيتها (...) فقد كفت هذه المؤسسات عن أن توفر الوسائل اللازمة لحكم المجتمع والحياة فيه".

* * *

(خ)

عقب صلاة الفجر أيقظت عنتر. أطل من النافذة وهو شبه نائم، فتح فمه ولم ينطق، بدا وكأنه لا يراني على الرغم من تحديقه في، ارتفع صوتي:

- أريدك في سفر

سمعني فرآني، رد وهو يتثائب:

- خير إن شاء الله.

وقبل أن أنطق بوجهتي، غادر النافذة بينما صوته يصلني:

- بعد نصف ساعة تجدني أمام بيتك

في انتظاره راح الأب يذكرني بأسماء الأماكن التي تشهد أسواقاً يوم الأربعاء. وعند ذكر كل بلد يتوقف قليلاً، يحكي عن صديق، زملاء ربع قرن قضاه في الجيش، أغلبهم أستشهدوا في حرب من الحروب العديدة التي لا ينساها، تطوع أبى في الجيش عام 1954 إثر خلاف مع أبيه، أهانه الجد وطرده من البيت، أبت كرامته أن يعود ذليلاً ولم يجد مكاناً، فلجأ إلى الجيش،

وخرج منه قبيل نهاية عام 1979، خاض كل الحروب،
وامتلأت كوابيسه بالدانات، والغارات، واتخمت ذاكرته بأسماء
الشهداء.

حضور عنتر منع الأب من الاسترسال، فأشعل سيجارتين،
ناول إحدهما لعنتر الذي توقف أمام البيت، ولم يرفع يده عن
الكلاكس إلا بعد أن مد يده ليلتقط سيجارة أبي.

* * *

(د)

توقفنا أولاً عند قسم الجيزة، كان الوقت مبكراً، وكان الملازم يشرب شاياً بالحليب. يتشاءب قبل أن أكمل كلامي أشار بأن أتوقف، قال:

- بعد مرور 24 ساعة تقدموا بلاغ باختفائه.

اعترضت قائلاً:

- أنا لا أبلغ عن اختفائه، فقط أريد التأكد إن كان محتجزاً هنا أم لا؟

سألني عن الاسم. أجبت: بلهفة:

- غريب أحمد منصور.

لم يرد على أحدا بهذا الاسم.

رجوته:

- إن كان لديك بيان بأسماء المحتجزين أرجو أن تراجع.

تبدلت ملامحه وبرزت أنيابه التي كثر عنها وهو يصيح:

- قلت لك ليس هنا

قالها بلهجة حادة تجمع بين الغضب والتحذير، فغادرته عائداً إلى التاكسي، وعند مديرية أمن الجيزة توقف عنتر. نهره الجندي الذي أمرنا بأن نبتعد:

- ابعد يا أجرة.

أشار عنتر بأن ينزلني ثم يبتعد، لكن الجندي رفض أن يمنحني الفرصة:

- قلت لك اطلع يا أجرة أحسن لك

* * *

عدت المائة متر التي ابتعدها التاكسي مغتاضاً وأنا أضرب وجه الأسفلت بعكازي. رمقت الجندي بغضب. تبدلت لهجته المرأة:

- أسف يا أستاذ. إن رأى الباشا التاكسي واقفا أمام باب المديرية لن يرحمني.

سألته عن الحجز فسألني عن الحكاية. فلما سمعها قال:

- شباب هذه الأيام غاوى يطفش، لا يتحمل كلمة من أبوه ولا شخطة.

- هو لم يطفش

تجاوز عن لهجتي الغضبي، وأسدى لي معروفاً.

- لن يجيبك الضابط عن شيء. فلا تقصده واذهب إلى عم
خلف. هو رجل طيب وحينما يراك بالعكاز سيخدمك لوجه الله،
ومن باب الاحتياط قل له فراج بلدياتك اللي ع البوابة باعتني
لك.

وصف لي الطريق إلى خلف، الذي سمع حكايتي بنصف
انتباه ثم قادني صامتا إلى غرفة الحجز.
وقف ببابها، وهتف منادياً:

- غريب أحمد منصور .. غريب أحمد منصور
ظل ينادي الاسم مرات ومرات، لكن غريباً لم يرد، فنصحتني
خلف بالبحث في المستشفيات.

* * *

(ذ)

وقفت طويلاً في انتظار عنتر. تصفحت الجرائد بسرعة ثم طويتها. أعدت فرد إحداها على الرصيف وجلست. ولما حضر عنتر اعتذر. قال إنه ذهب إلى محل عمله القريب ليقع في دفتر الحضور. ضحك وهو يشكو:

- المدير ابن الكلب استغل الظروف.

واصل موضحاً دون أن أسأله:

- كل يوم أفطره فول وطعمية لكنه اليوم طلب قشطه وبيض وجبنه رومي.

- إفطار يوم كلفك ثمن إفطار أسبوع

- لأجل خاطرك أحضرتهم له مع باكو شاي، قلت له إن مشواري سيطول وقد لا أعود في نهاية الدوام، فقال إنه سيوقع لي في الدفتر عند الانصراف أيضاً.

* * *

(ر)

عرجنا على منزل الأستاذ رشدي صاحب مكتب المحاسبة
الذي أعمل به. ظننت أن بوسعه أن يفعل شيئاً، فحكيت له، وهو
بدوره حرص على تقصي كل التفاصيل، ولما انتهيت منحنى
إجازة، وأقرضني مائة جنيه، ثم زفر وقال:
- ربنا يجازى أولاد الحرام

* * *

(j)

قادني عنتر إلى قسم إمبابة ثم مستشفى إمبابة العام، بعده
قصدنا مركزي شرطة الوراق والمناشي، وفي كل مكان نرى
الضابط الذي كان يشرب الشاي بالحليب في قسم الجيزة، هو
نفسه الضابط، حتى وإن غير مشروبه ولون عينيه، قد تنطفئ
السيجارة بين أصابعه أو تشتعل لكنه هو نفسه.

وفي كل مرة يقول إن الاسم لم يمر عليه (سيتضح كذبه
فيما بعد) وفي كل مرة يرفض إلقاء نظرة على أسماء
المحتجزين (لا يوجد كشوف بأسمائهم)، وكل مرة يزمر وهو
يطالبني بالأزعجه، وينصحني بأن أصمت وأبتعد.

* * *

قبل أن نجتاز الجيزة إلى القليوبية تذكرت أني لم أتصل
بالبيت. قلت لعنتر فتوقف عندما رأى كابينة التليفون. علمت أن

هاني لم يتصل، وأن محمد تحدث مرتين من الحوامدية ثم من
البرشين، ولا جديد عنده.

اتصلت بهاني فلم أجده، عدت إلى التاكسي فلاحظت أن
العداد عاد إلى رقم البداية، لمح عنتر نظرتي المستريية أو لعله
توقعها، فقال موضحاً:

- عندما يصل إلى ستين جنيه لابد أن أعيده إلى البداية حتى
لا يحترق.

* * *

(س)

كان الزحام في مركز شرطة القناطر شديداً جداً وكأننا في
ساحة سوق، أوقفني مخبر سرى. سألني عن مقصدي، ثم أشار
بيديه لأعلى:

اسأل عم حنفي. ستجده في حجرة النوبتجية.

على السلم زاحمني مخبر آخر. رأيته يقود أربعة صبية.
لحاهم لم تنبت بعد وثيابهم بيض. سبقني بهم إلى حجرة
النوبتجية. سمعته يقول للضابط:

- تحري يا باشا

قال الضابط بلهجة امرأة:

- قل لحنفي يعمل لهم أربعة محاضر

ثم التفت للصبية:

- تعال هنا يا أنت وهو

اقتربوا. أشار لهم بأن يتحركوا ناحيته فاقتربوا أكثر، الضابط

حدّق في وجوههم، ثم سحب نفساً عميقاً من سيجارته، ثم نفث الدخان في وجه أقربهم إليه. أعاد تفحصهم، ثم صفع أطولهم:

- ما اسمك ؟

- محمد على إبراهيم

- كم سنك؟

- 16 سنة

-ماذا تعمل؟

- طالب في سنة أولى تدريب مهني

- أين تسكن؟

- في بهتيم.

- أبوك يشتغل إيه؟

- نجار مسلح

نفس الأسئلة وجهها للباقيين. وتقريباً تلقى نفس الأجوبة، ولما انتهى عاد لسيجارته. نفث دخانها في وجه أحدهم. صفع آخر. سأل الثالث:

- قل أنت. وإياك والكذب.

- أنا لا أكذب يا باشا.

- لماذا جئتم القناطر؟

- نحن خرجنا في سبيل الله

شخر الضابط وهو يقهقه:

- إيه؟ في سبيل إيه؟ يعني إيه؟ جابين في غزوة للقناطر
يعنى؟

ظل الضابط يضحك ساخراً بينما الصبية واجمين. ولما شعر
الضابط بأنهم حصلوا على وقت أطول من اللازم، أشار لهم بأن
يبتعدوا ثم راح يصرخ في حنفي:

- حنفي .. يا حنفيييي ...

- أمرك يا باشا

- المحاضر تخلص بسرعة

- في ثوان يا باشا

طال وقوفى فتوجهت لحنفي، لم يلتفت لي. ولما أصررت
على سؤاله شخط:

- نعم يا سيدى

سألته عن غريب فقال:

- بعد ما أخلص المحاضر أشوف لك دفتر الأحوال

دخل ضابط المباحث نظر إلى الصبية. سأل عن حكايتهم،
عاد زميله للقهقهة والشخر:

- بيقولوا خارجين في سبيل الله

- بيقولوا من الأحباب.

- أحباب مين؟
- ده الاسم الشائع والمتداول لجماعة اسمها التبليغ والدعوة.
- العوام بيسموهم كده.
- جماعة؟
- جماعة مستأنسة لا خوف منها.
- إزاي؟
- ما بيتكلموش في السياسة. وناسها غالبا جهلة وطيبين لحد الهبل. أو زي العيال اللي قدامك دول.
- كنت ناوي أوردتهم النهاردة لأمن الدولة.
- لا بلاش، متضحكهمش علينا
- معنى كده إنهم عارفينهم كويس؟
- طبعا، وعلى فكرة ممكن تقطع المحاضر وتسيبهم يمشوا.
- بسرعة كده؟
- لو معندكش غيرهم وناوي تتسلى بيهم، خليه عندك لبكرة.
- عندي فضول أعرفهم كويس
- ماشي لكن خد بالك يومين بالكثير ويمشوا، مش ناقصين دوشة.
- فرغ حنفى من المحاضر أسرع بسؤاله عن غريب. لم يفتح دفتر الأحوال. أجب بسرعة:

الاسم ده ما وردش علينا، ده غير إن سوق القناطر يوم
الثلاثاء وليس الأربعاء. لكن بالأمس وقعت حادثة على الطريق
والمصابين مازالوا بالمستشفى. روح شوفه هناك يمكن تلقاه.

* * *

(ش)

فى المستشفى دلونى على كاتبة الاستقبال. وجدتھا تشرب الشاي، إلى جوارھا امرأة بدينة، يبدو أنها تكبرھا بنحو عشر سنوات على الأقل. اقتربت فسمعت المرأة تنصح كاتبة الاستقبال:

- خلى بالك منه

- ما تخافيش

- ده تعلب كبير، أنا خايفة عليك؟

تضحك بميوعة:

- لا خالص مفيش قلق، يبقى انت لسة متعرفينيش

أمسكت المرأة بكوب الشاي، فأسرعت بسؤال كاتبة الاستقبال قبل أن تواصل البدينة نصائحها. غادرت كاتبة الاستقبال مكتبها. فتحت دولاب وراحت تخرج منه دفاتر عدة. وضعت أحدها على المكتب، وأعادت بقية الدفاتر إلى مكانها في الدولاب. تأملت محتويات الدولاب لثوان قبل أن تغلقه وتجلس إلى مكتبها.

رشفتم رشفتين بصوت مسموع. عاودت زميلتها تحذيرها:

- لقد حضر، خلى بالك

أرسلت عينيها باتجاه الباب، فاصطدمتا بالداخل، بادرها الرجل، قال بصوت محايد:

- النيابة طلبت ملف تسمم التلامذة

تنظر باتجاهه ولا ترد، يتعجلها:

- انجزي مندوب النيابة مستعجل.

- التلامذة بتوع الشهر اللي فات.

- لا، بتوع الشهر اللي قبله.

- مش وقت هزار.

- أنا بتكلم جد.

- وإيه بقى اللي فكرهم بعد شهرين؟

- سيبى اللي معاك وشوفي الملف بسرعة، بقول لك مندوب
مخصوص من النيابة منتظر فوق عند المدير

غادرت المكتب. أعادت فتح الدولاب. اختفت بين الملفات.
ذكرها زميلها:

- الشهر اللي قبل اللي فات يعنى ملف العيال ال14-

- عارفة الشهر اللي فات تسمم تسعة بس

- وعلى آخر السنة تكون المدرسة كلها تسممت

خشيت أن يطول حوارهما، فرجوت زميلتها أن تبحث هي
عن أسماء مصابي الأمس. رمقتني صامته، قذفت بقطعة اللادن
التي تلوّكها، فأدخلتها إلى السلة، فتحت الدفتر وطالبتني أن
أبحث بنفسي. قرأت الأسماء كلها ولم يكن بينها اسم غريب.

* * *

(ص)

كانت ساحة سوق الباجور موحلة، ركن عنتر السيارة إلى جوار مقهى، جلست بينما ذهب هو ليشتري سندويشات. لم أستطع ابتلاع شيئاً حتى ولو لقمة واحدة، فقط شربت الشاي والأسبرين لأقاوم الصداع والبرد، اقترب منا صاحب المقهى. أدرك إننا غرباء فجاء يسأل عن مقصدنا، أخبرناه بالأمر فقال:

- بالأمس كنت في مشوار في مصر، الولد مرعى كان هو الموجود.

رجونه معاً:

- ليتك تناده

- هو ليس موجوداً الآن سيعود خلال ساعة

كان لا بد أن نجلس تلك الساعة، ننتظر عودة مرعى، فتذكرت مرعى آخر كان زميلي في الجامعة، ويسكن الحجرة المجاورة لحجرتي في المدينة الجامعية. دخلت حجرته فرأيت صورة جيفارا. سألني إن كنت أعرف الشيخ إمام؟

فأجبت بأنه ابن قريتي، وطلبت أن يسمعي أغنية جيفارا مات. نقر بأصابعه على المكتب عازفاً اللحن الجنائزي، بدا متأثراً وكأن جيفارا قد مات لتوه، ولما انتهت الأغنية عاد لحالته العادية، بشرا سويا، صمت لحظات ثم فاجأني متسائلاً:

-هل قرأت هذا الكتاب؟

كان يمسك برواية مائة عام من العزلة، لم أكن قد قرأتها بعد. أجبت بالنفي، فنصح بأن أقرأها. مددت يدي لأخذ الكتاب فرفض، ثم سألني هل معك فلوس؟

تعجبت وانشغلت بمحاولة فهم مغزى سؤاله، ابتسم قائلاً: ما تخافش لن أطلب منك فلوس سلف، لو معك ثلاثة جنيهات اذهب إلى ميدان الجيزة، هناك تجد مكتبة تتبع هيئة الكتاب، في فاترينة العرض ثمة نسخ قليلة من الرواية، أسرع واشتر واحد قبل أن تنفد، لا بد أن تقتنيها.

وعدته بأن أفعل، ومددت يدي ثانية طالبا الرواية، فاجأني بأن طلب كتاباً مقابلها. ابتسمت سائلاً: رهن أم بدل؟ قال رهن طبعاً حتى أضمن أن ترد لي كتابي. غادرته لدقيقتين، قصدت غرفتي وعدت وفي يدي أحد أجزاء الدون الهادئ.

* * *

اعتدنا تبادل الكتب والشرائط. قرأنا معاً ديستوفسكي وابلو نيرودا وناظم حكمت وأمل دنقل، سمعنا معاً فيروز ومارسيل خليفة وعبدالحليم حافظ وأم كلثوم وسيد درويش، والشيخ إمام.

عشق مرعي الكبير لأمل دنقل ويقينه الراسخ أن كل ما سيكتبه لن يساوى حرفاً من شعر أمل جعلاه يُقْلَع عن كتابة الشعر، وحينما شاركنا فتحي رضوان في التظاهر أمام جامعة القاهرة، احتجاجاً على اغتيال سليمان خاطر جأر مرعى بقصيدة لا تصالح، وتلاها بأيها الواقفون على حافة المذبحة.

هذه القصيدة بالذات كانت شعاره، ينشدها في كل المواقف، حتى حينما نقصد مطعم المدينة الجامعية ونجده مغلقاً كان ينشدها ضاحكاً.

كان يخرج الملعقة من مكنها داخل الجورب، يشير بها ثم يصيح:

المنازل أضرحه

والزنازن أضرحه

والمدن أضرحه

ثم يضع ملعقته في جيبه قبل أن يكمل:

فارفعوا الأسلحة واتبعوني

وبعدما يفرغ من الطعام ينقر على الصينية الفارغة

ويغنى لسيد درويش: "دنجى .. دنجى".

ثم يغسل الملعقة ويعيدها إلى مكنها داخل الجورب،

وفي الطريق لحجرتينا يحدثني عن حلمه بأن يصير مغنياً.

سبقتي مرعي في التخرج بعام، زارني أكثر من مرة في العام

الذي بقيته بعده في الجامعة خصوصاً في الفترة التي سبقت دخوله الجيش، بعدها قلت زيارته لكن لم تنقطع، حينما أراه كنت أحن لسنوات ثلاثة قضيناها معاً، ومرت سريعاً.

* * *

كان يأتيني لبيوح بعذاباته ويغنى، ينتقل من "حبيبتك بالصيف" إلى "بين ريتا وعيوني بندقية"، ثم يكف عن الغناء ليحكي عن "دنيا" التي لم تصن عهد الهوى، وعن أخيه الذي عاد من العراق قتيلاً، وعن شهور التجنيد التي لا تنتهي، ثم يختم حديثه بلازمة أبدية:

"مرت أزمنة الجد والفرح،

ولم يبق إلا التعاسة

والشقاء"

يردها كثيراً قبل أن ينخرط في الغناء أو الصمت المطبق.

* * *

أشعر بالحنين إلي مرعي، أتذكر صوته العذب الشجي، قهقهته وهو يحكي كثيراً عن "مائة عام من العزلة" والفتاة التي طارت بواسطة ملاءات السرير، يتمنى لو يفعلها هو ودنيا. لو يطيران بعيداً. بعيداً حيث لا أحد.

* * *

أتذكر أنى لم أكتب له ولا رسالة واحدة طيلة السنوات التي مضت على تخرجي في الجامعة. هو أيضاً لم يرسل لي كل الذين أحببتهم لم أزرهم، ولم أراسلهم. هم أيضاً لم يفعلوا بالرغم من تبادلنا للعناوين. فهل كنا حقاً أصدقاء؟

* * *

سألت صاحب المقهى عن مرعى الآخر، كان يعرفه، قال:
عمله ليس بعيداً عن هنا.

وصف لنا مكان عمله فتركت عنتر يدخل الشيشة وذهبت إليه وحدي. تذكرني فور رؤيته لي. وصامتان تعانقنا وبكىنا. أشرت إلى الكرش الذي تضخم بشدة، فقال:

- معلق أنا على مشانق الصباح وجبهتي نحو الأطباق محنية

- ما زلت تستعير قصائد أمل دنقل

- الأطباق وما فيها من إبداعي الخالص

ضحكنا. نسيت همي للحظات، نهض وأمسك بيدي، انتحي بي مكاناً قصياً فأدركت أنه بحاجة للبوح، استمعت إليه فاكتشفت صوته فاقداً العذوبة التي كانت له.

حكى عن أرملة أخيه رضوان. أصر الأب أن يزوجه بها ليربي أولاد أخيه. وافق فقط ليرضى الأب ويدأى شروخاً في القلب أحدثتها "دنيا".

لكن الشروخ واصلت الاتساع، وتهاوى القلب فتسربت الروح

من جوفه تدريجيا، وبقي شبجه يخالط الناس، ودع الأحلام القديمة. لم يبق منها إلا ذكريات باهتة. وحتى لا يستعيدها سألني عن سر الزيارة الغريبة، حكيت له فاعتذر لأنه شغلني عن مأساتي بحكايته القديمة، رافقني حتى المقهى. علمت من عنتر أن صبي المقهى حضر. هرعت ناحيته، سألته عن أحداث الأمس، فأخبرني عن معركة شهدها السوق بالأمس وخلفت أكثر من ضحية.

* * *

(ض)

في المستشفى أفاد الطبيب بأن ثلاثة من مصابي المعركة عولجوا وغادروا في نفس اليوم. لم يكن أحدهم يحمل اسم غريب أما الرابع فهو رجل في الخمسين جيسوا ساقه اليسرى المكسورة، وأبقوه بالمستشفى. وبغلظة أخبر عن الخامس:

- اذهبوا لعم بدوى في المشرحة ربما يكون القتيل هو من تبحثون عنه.

عند المشرحة بادرنا بدوى بالسؤال:

رجل أم امرأة؟

أجاب عنتر:

- شاب في حدود الثلاثين.

- أوصافه؟

سألني عنتر:

- ماذا كان يلبس؟

أجبت بانقباض:

- بنطلون جينز أزرق وجاكيت جلد أسود، وعلى الرأس
والكتفين شال أبيض.

أضاف عنتر سائلا عامل المشرحة:

- اسمه غريب أحمد منصور

قال بدوى:

- هذه الأوصاف تنطبق على جثة وردت بالأمس. لم تكن من
ضحايا خناقة السوق، لكن يبدو أن حافظة نقوده سرقت فلم
نعرف اسمه لكنه جاء بدون الشال.

* * *

جزعت. غزتني رغبة في القيء. أحسست وكأن روحي
تتسرب مغادرة جسدي المنهك الذي تجمد مكانه. ولما أرانا
بدوى الجثة المنكفة على وجهها سمعت عنتر يقول:

- هو .. هو غريب.

نظر لي مواسيا بصمت، صرخت ملتاغاً. قفزت معانقاً الجثة.
انكفأت عليها. واصلت الصراخ. صرختي كأنها حُمِلت بكل
عذابات غريب وإحباطاته، فخرجت وكأنها شوك ينزع من
أحشائي. يُمزقها. ولما حاولت تقبيل الوجه شعرت بالشارب
الكث، انتبهت، أخي غريب لم يكن ذا شارب. أدت الوجه. لم
يكن هو.

وحینما ارتطمت بأرض المستشفى سمعت صوتي یهتف:

- لیس هو .. لیس هو.

* * *

(ط)

مرعى وعنتر حملاني إلى التاكسي.

أصر مرعى على مرافقتنا حتى سوق أشمون.

أخبرني عنتر عن اتصاله بأبي النمرس. قالوا له أن محمد اتصل مرتين من العياط ومن الصف، ولم يأت بخبر، لم يبق له إلا أطفح بينما بقيت لي أشمون.

طوال الطريق وعنتر يجتر ذكريات عن أشمون جريس، يترحم على أيام قضاها هناك، يصفها بأنها بلد الخير.

- والله يا أستاذ مرعى أشمون جريس بلد كلها خير، وأهلها جميعهم كرام.

في كل مرة تكون هذه الجملة افتتاحية لحكاية تذكرها في لحظته، وكل حكاياته مرتبطة بالمرحوم زوج خالته الذي كان يعمل بالجمعية الزراعية بأشمون. كان عنتر طفلاً، واعتادت أمه أن تصحبه كل صيف لزيارة شقيقتها. وكانت تعود بدونه، فخالته كانت تستبقيه.

- تصدق بابه يا أستاذ مرعى؟

- بالله العظيم.

- والله العظيم، والله العظيم الأرز المعمر الذي أكلته في
أشمون جريس، وأنا طفل صغير، رائحته لم تغادر أنفى حتى
الآن.

- معقول؟

- يا سلام على رائحته. يا سلام على السمن البلدي العايم على
وش الطاجن ..

- واضح إن الست خالتك كانت طبخة هائلة.

- لم تكن هي. كانوا الجيران.. مش قلت لك كل أهل أشمون
جريس كرام، ما أن يستشعروا وجودنا حتى يطرُقوا باب خالتي.
وخذ عندك يا أستاذ مرعى .. واحدة تحمل حلة لبن، وأخرى
تأتى بالقشطة والجبن الحلوب، وغيرها بالبيض، وغيرها بالأرز
المعمر. كل هذا بخلاف العيش الطازج الخارج لتوه من الفرن.
كانوا يعرفون أن خالتي غريبة، ويريدون عدم إشعارها بالغربة
خاصة أثناء زيارات أهلها لها.

* * *

وفي مركز أشمون أشعل مرعى سيجارة لمساعد الشرطة.
وهمس في أذنه، سحب الرجل نفساً ثم نفث الدخان وقال:

- جاءنا بالأمس شابين قضيا ليلتهما بالحجز، وصباح اليوم تم

ترحيلهما، واحد إلى طنطا والآخر إلى بنها.
بنها وطنطا، إذن لم يكن غريب أحدهما، قصدنا المستشفى
ولم نجد غريبا فعدنا نقطع الطريق في عكس الاتجاه.

* * *

(ظ)

عند مدخل أبو النمرس استوقفنا رجال الشرطة. فتشونا واطلعوا على ما يثبت هوياتنا قبل أن يسمحوا لنا بالدخول إلى بلدنا.

عاودتني الرغبة في القيء لكنني حرصت على متابعة العداد، قرأت الرقم (4800). إذن كان عنتر يكذب حينما أعاد العداد إلى رقم البداية قبل أن نمر بينها في طريقنا.

لحظتها غلبني القيء فغادرت التاكسي. أسندت رأسي إلى السور المحيط بترعة المنصورية وأفرغت جوفي. ولما عدت وجدت العداد ثانية عند نقطة البداية جادلت عنتر، فأكد أنني لم أر جيداً لكوني متعب. أصر على أن العداد وصل إلى ستين جنيه، فأعاده إلى البداية حتى لا يحترق.

كنت على يقين من كذبه لكن استسلمت. عدت مائة وعشرين جنيهاً، مددت يدي بالنقود فسألني:

- كم ؟

- مائة وعشرون جنيها
- حسابي يا أستاذ مائة وخمسين
- كيف؟

- 120 للعداد للبنزين والتاكسي، أما أنا فأتعابي ربعم فقط،
يعنى يا دوب 30 جنيه، وده وحياة أولادي عشان بس غلاوتك
والضيقة اللي انتوا فيها.

بلغ استسلامي منتهاه. فأضفت الثلاثين جنيهاً إلى ما في يدي،
لكن عنتر رفض أن يلمسها. أقسم بأغلظ الأيمانات ألا تدخل
جيبه قبل رجوع غريب.

* * *

(ع)

- هل وجدته؟

عشرات الأفواه قذفتني بالسؤال.

لم يره أحد يغادر التاكسي فكان من الطبيعي أن يعلموا بالإجابة دون حاجة للسؤال، لكن أعذرهم. جميعهم تمنى لو يعود، فكانهم يسألونني عن سر الغياب. خاصة أن محمد عاد بدونه، قبل وصولي بساعتين فأصبحت مناط أملهم.

بدا البيت وكأنه يشهد مآتماً، الجيران والأقارب يملؤون البيت. الذي ينصرف يجئ غيره. الجميع يواسي، يطمئننا ويرجو أن يطمئن، ويحكى عن وقائع متشابهة.

كان الأب حزيناً ومرهقاً، يدخن بشراهة، رجوته أن يكف. نظر لي صامتاً ثم سحب من سيجارته نفساً عميقاً.

من الداخل نادتنى أمي. رمتني بنفس السؤال كانت تبكى والنسوة يواسينها، رأيت بينهن الجارة بسيمة، كانت تبكى بحرقة

وهى صامته، إلى جوارها تجلس زينات التي كانت تتكلم كثيراً وتؤكد بثقة على أنه بخير وسيعود غداً، تبدو وكأنها تعرف مكانه. أكدت أن ابنها سرحان تعرض منذ شهرين لنفس الموقف. غاب يومين وعاد بعد ظهر اليوم الثالث.

طلبت الجدة أن أدع أمي معها، وأصعد شقتي لأستريح. معي سعد محمد. لاحظ حزني وشرودي فحاول أن يسرني عنى:

- بسيمة كانت تبكى بحرقة.

- لاحظت ذلك.

ابتسم مضيفاً:

- يبدو أنها مازالت تحبه مع أنه قطع علاقته معها منذ أكثر من سنة.

- ما كان بينهما ليس حبا، كان الأمر مجرد نزوة.

- برأيك أيهما تنتظره بشوق أكثر بسيمة أم زينات؟

- وهل ترى الوقت مناسباً لهذه السخافة؟

أدرك حدة ردي، خشى أن يرافقها اتهام بالشماتة أو على الأقل عدم الاهتمام بما يحدث لأخيه. حاول أن يبدو مطمئناً على غريب، وأن ينقل لي اطمئنانه لينفي التهمة التي لم يوجهها له أحد.

- قلبي يحدثني إنه لم يصب بمكروه.

- ولم غاب إذن؟ وأين؟

- الشرطة يا أخي. ابحث عن الشرطة.

- طوال اليوم وأنا أبحث.

- كل زملائه تعرضوا لمثل هذا الموقف. مؤكد إنه في أحد المراكز أو الأقسام التي مررنا بها. وسوف يعود. قد يعود خلال يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر، هذا يحدث مع الجميع ممن يمارسون مهنته، فلا تقلق.

كان موقناً من صحة كلامه، فبدا وكأنه غير قلق. أعلم أن الشرطة تتشط للقبض على الباعة الجائلين خصوصاً في مثل هذه الأيام. يحمون منهم المستهلك والاقتصاد القومي. لماذا لم يقرؤوا هرناندو دي سوتو؟ واستمعوا فقط لمن وصفه أبى بـ "ابن".

أتمنى أن تصدق توقعات محمد. لكن ماذا لو لم تصدق؟ ألزم الصمت فيغادرني محمد. أبقى وحيداً إلا من قلقي، أتذكر تلميحات محمد عن بسيمة وزينات. دون أن أشعر أو يقصد ألقى إلى بطوق نجاة ينتشلني قليلاً من كربى.

* * *

بسيمة متزوجة من جارنا فؤاد الموظف بالإدارة الهندسية. هو المسئول عن استخراج تراخيص المباني. يكسب كثيراً من هذا العمل فالتراخيص لا تمنح إلا لمن يدفع. لم يحتج لعمل آخر بعد الظهر أو في المساء. فكان يقضى بقية نهاره في لعب الكرة في " أرض النخل " ذلك الملعب الصغير خارج مدينتنا والمحاط

بالنخيل من كل جانب.

كان فؤاد عارفا بمهارة غريب في لعب الكرة فإن رآه يدعو
ليكون ضمن فريقه. سرعان ما أصبحا صديقين رغم فارق
السن. حتى السهرات كانا يقضيانها معاً. وغالباً ما تكون في
بيت فؤاد.

عند الباب يهتف غريب: "يا فؤادي" فيأتيه الرد بضحكة فؤاد
وكلمة بسيمة:

- اطلع يا غريب.

يتضحك فؤاد:

- ما غريب إلا الشيطان.

كانت بسيمة تسهر معهما، تعد الشاي على موقد السبرتو،
وهم يقضون الأمسيات الصيفية على سطح البيت ويستمعون إلى
أم كلثوم عبر الكاسيت، ويتسلون بقزقة اللب والفول السوداني
وإطلاق النكات.

بسيمة تقوم كثيراً لتلقى نظرة على الأطفال النائمين أو لتبعد
قطاً يحوم حول حظيرة أفرانها. ومع كل قيام وعود يتابعها
غريب بتركيز شديد فتوبها المنزلي الخفيف يكشف عن كل قيام
وقعود عن مساحات من فخذها البضين. أما إذ بكى الصغير
مراد فهي تلقمه ثديها. ساعتها يتمنى غريب ألا يشبع الطفل.

في الصيف قبل الماضي أصيب فؤاد أثناء لعب الكرة، حدث
أن عرقله أحد منافسيه فارتطم بالأرض. شعر بالآلام حارقة في

ساقه. قام غاضباً يتوعد من أوقعه. زادت الآلام ولم يستطع الخطو. سقط ثانية فارتطمت رأسه بجذع نخلة وفقد الوعي.

في المستشفى بكّت بسيمة وأصرت على أن تبيت مع زوجها لكن الزوج رفض، طمأنته بأنها أرسلت العيال ليبيتوا مع أمها ولم يبق معها إلا الرضيع. ذكرها الزوج بأنه سيقضى ليلته في عنبر الرجال فأتناها عن عزمها. رافقها غريب الذي كان آخر المغادرين من زوار فؤاد.

رآه محمد يحمل عنها الطفل ويدخل معها البيت، ورآه يخرج من عندها بعد انتصاف الليل. ارتاب في الأمر، فحاصر غريباً حتى اعترف بما حدث ليتخلص من إلحاحه. لم يقل إلا جملة واحدة

- الشيطان ضحك علينا .

* * *

محمد لم ير أخيه غريباً، وهو يتسلل داخلاً بيت زينات، لكنه هو الذي حكى. كان عائداً من أحد الأسواق بعد العصر، والكرتونة كما هي، لم تنقص شيئاً. زينات أفسحت له مكاناً إلى جوارها في الميكروباص المكتظ بركابه. سألته:

- لماذا لم تسافر مع ابني سرحان؟

- لا أحب شغل المحافظات.

- لكنه أفضل من الشغل هنا.

- أنا لا أحب الغربة، و رب هنا هو رب هناك.

- راجع نفسك وفكر، المحافظات ليست سفراء، وهناك أحسن من هنا، فسرхан يغيب شهراً أو شهر ونصف ويعود مجبور الخاطر، غير راحته من البلدية والشرطة والرجوع بالكرتونة كما هي دون أن تنقص.

عند آخر الخط غادروا الميكروباص، وغريب لم يزل يستشعر الدفء المنبعث من فخذ زينات، وكأنه مازال ملتصقاً بها. سارا خطوات معاً فأخبرته بأن سرحان المسافر منذ أسبوعين أوحشها، وأن زميلاً له سيمر عليها ليحمل رسالة إليه، وطلبت من غريب أن يكتب لها الرسالة.

سارا معا صوب بيتها، سمع حكاياتها عن بوار سلعتها، فالعرائس الآن يذهبن للكوافير ولا يأتين لها، وسرحان يظن أنها تكسب كثيراً ولا يرسل لها مالاً.

بالقرب من الباب وضع غريب الكرتونة، جلس على الكنبه وغادرته لدقائق. عادت ومعها قلم وكراسة. جلست إلى جوار غريب لتملي عليه الرسالة. تحدثت عن أشواقها للابن المسافر وبكت مشيخة بوجهها عن غريب.

أما هو فقد ربت على كتفها فاقتربت - بظهرها - منه، ولم تكف عن البكاء. أراح يسراه على كتفها الأيمن وهي لم تكف. هبطت يسراه قليلاً ثم تسللت عبر الإبط إلى الثدي. قبض عليه بشدة فتأوهت وهي تبكي. أمسكت يمينه بالثدي الآخر فكفت عن البكاء، وعادت تنظر إليه. قبل شفثيها فأغمضت عينيها. ولما

أطال المداعبة حذرتة من الإبطاء فقد يأتي زميل سرحان ليتسلم الرسالة وتضيع الفرصة.

ليلتها لم ينم محمد قبل أن يحكى لي. قال إن غريب سيضيع، ولا بد أن نفعل شيئاً لإنقاذه. واجهت غريباً فلم ينكر. حاولت القيام بدور الأب الناصح فلم أفجح.

قال لي:

- لا تلمني. لو كنت مكاني هل كنت تستطيع الرفض؟

- وبسيمة؟

- كانت غلطة.

- غلطاتك كثيرة .

- ماذا أفعل وقد تجاوزت الثلاثين، بلا عمل، وبلا أمل في المستقبل أو في الزواج أو في أي شيء؟

- وهل الزنا هو الحل؟

- ليس حلاً، لكنني أريد أن أنسى قليلاً ما بي.

- كأنك تعتبره مخدراً.

- اعتبره كذلك، المهم إنه ينسيني متاعبي ومشاكلي ولو للحظات.

جادلت طويلاً فلم تبد عليه نية في التراجع. اضطرت لإجباره على القسم. وضع المصحف على عينيه، بكى وأقسم ألا يعود لمثل ذلك.

وفي الأيام التالية كان يتجنب رؤيتي. لا أدري إن كان خجلاً بعدما عرفت سره أم ندماً بعدما اقتنع بخطئه؟ أم لعله ضاق بي لأن إلحاحي دفعه لقسم قد يحنث به؟

لم أشك لحظة في التزامه بالقسم. لكن عاودني الشعور بالعجز وأنا غير قادر على مساعدته بأي شيء للخروج من أزمتة ووقف هجمة الشحوب عليه.

نفس الشعور بالعجز انتابني بعد عودته من السعودية بناء على نصيحتي أيضاً، فقررت ألا أنصح به بعد اليوم وألا أدعوه لفعل شيء أو أنهاه عن فعل شيء.

أقنعت نفسي بألا استمرئ دور العاقل الناصح فأنا أحوج للنصيحة وأعجز عن أن أفعل شيئاً لنفسه أو لغيري.

* * *

(غ)

آلام المخاض فاجأت زوجتي. أمي وجدتي هرعتا إليها. بعد دقائق خرجت جدتي. قالت أن الوقت لم يزل مبكراً، والولادة لن تتم قبل الفجر. تبعتها أمي. حذرتني:

- إن جاء المولود ذكراً إياك أن تسميه غريباً.

لم يخطر ببالي أن أمنح المولود اسم أخي، لكن تعجبت. سألتها عن السبب، لم تجب إلا بالبكاء. أنابت عنها الجدة في الجواب:

- هذا فال سيئ يا ولدي.

لم أفهم. استوضحت فتذكرت الجدة يوم ولادة أخي محمد. حكّت أن أبي أراد أن يسميه على اسم أبيه "محمد"، ابنتها وافقت لأن محمد هو أيضاً اسم أبيها. جدتي لأبي غضبت مدعية أن محمد المقصود ليس زوجها، وابنها يرضي زوجته وأبيه معا مستغلاً تشابه الأسماء.

صارت مشكلة أفسدت فرحة أبي بالمولود، حتى يحسم جدي

لأمي الأمر طلب من أبي تغيير اسم المولود ومنحه اسماً آخر. لكن جدي لأبي اكتشف حلاً أيسر. أخرج من الصديري مصحفاً، فتحه على سورة يس، وطلب من أبي أن يقسم ألا يكذب، وأن ينطق باسم سمي المولود.

بعد تردد وبغضب أقسم أبي بأنه اختار اسم أبيه لكن أمه لم تصدقه، وإن تظاهرت بغير ذلك، فبعد شهرين توفي جدي لأمي فقالت جدتي لأبي إن ابنها كان كاذباً فلو سمي المولود على اسم جده لأبيه لمات هو وليس الجد الآخر. جدي لأبي صدق زوجته، فرح بنجاته من الموت لكنه خاصم ابنه أربعين يوماً لأنه كذب عليه وأقسم كاذباً.

كانت الحكاية غريبة لكنني عذرت أمي، ولم أخبر أحداً بأني وعدت زوجتي أن تختار هي اسم المولود أياً كان جنسه.

* * *

"حينما حملت زوجتي لأول مرة، اتفقنا على أن أختار اسمه على أن تتولى هي أمر المولود الثاني. قلت أنها ستلد بنتاً وسأسميها آفاق.

ضحكت وقالت إنها ستضع ولداً يشبهني، لكنها وضعت أنثى، أسميتها آفاق، هوجمت بضراوة بسبب الاسم الذي بدا للأهل غريباً. رأوه غير لائق لمجرد إنه غير شائع.

لم تحتمل آفاق أن تكون سبباً للسخرية من أبيها، فغادرت الدنيا صباح يوم السبوع وبقي الغريبال المزركش شاغراً حتى

اليوم".

* * *

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

(ف)

لم تلد زوجتي عند الفجر بحسب ما توقعت جدتي، أيقظت محمد
لنخرج سوياً. عرض أن أبقى لأكون بجوار زوجتي. رفضت.
لا أستطيع تحمل عذاب الانتظار المزدوج: خروج المولود
ورجوع غريب.

قال محمد:

- كل زملاء غريب يتوقعون وجوده في أحد ثلاثة أماكن قسم
الأزبكية، أو قسم قصر النيل، أو مديرية أمن القاهرة.

صمت محمد قليلاً ثم أضاف بأن قلبه يحدثه بأن غريب لم
يصب بأذى، لذا يقترح ألا نذهب إلى المستشفيات.

كنت منهكاً ويائساً، فلم أجادل، أعلنت عن موافقتي له بقولي:

- سنتبع قلبك، وتأكيدات من سألتهم، ونكتفي بالأماكن الثلاثة
التي قالوا عنها.

ولما أخبر محمد أبي بخطتنا، وافق بهز رأسه صامتاً، ثم
أردف:

- الأمر لله من قبل ومن بعد.

بينما سألت أمي:

- وإن لم تجدوه في أحد هذه الأماكن؟

- نفاءلي يا أمي.

أعادت سؤالها:

- وإن لم تجدوه في أحد هذه الأماكن؟

أجابها أبي واجماً:

- عندئذ لا يصبح أمامنا إلا انتظار رحمة ربنا

خرجت أداري دموعاً اثثالت رغماً عني، وفي أذني صراخ
زوجتي. تذكرت آفاق، وبكاء غريب. ضم جثمانها قبل أن ندفنها
وصرخ فبكيت. نهره محمد وحملها عنه إلى جوف القبر،
فاحتضنني وهو يغالب دموعه.

* * *

(ق)

- ماذا نقول لهم؟

اقترحت أن نؤجل الاتصال التليفوني لما بعد صلاة الجمعة، أعاد محمد سؤاله فأفقت من شرودي، غادرنا مديرية أمن القاهرة إلى الشارع، قصدنا ضريح سيدنا الحسين، لم أزر مولاي منذ شهر رمضان قبل الماضي، عامان مرا، غريب كان معي، قال ونحن نتناول طعام أول سحور:

-شئ غريب حقا

- ما هو؟

- قدرتنا على خلق البهجة.

قلت باستغراب:

- من؟ نحن؟

قال مبتسما:

- نعم، نحن.

- كيف؟

- أنظر كيف حولنا ضريح الشهيد إلى مكان للنزهة والفرح، أعتقد لو كان الضريح في بلد آخر لما أثار غير الحزن والرغبة في البكاء.

لم يستقر غريب على هذا الرأي طويلاً، هو هكذا، يبذل آرائه وقناعاته بسهولة تبديله لجواربه كريحة الرائحة، دائماً لا يعرف الاستقرار على شيء أو في مكان.

مرة كنا نشرب الشاي في شرفتي ونسمع فيروز:

- إن ما سهرنا في بيروت نسهر بالشام.

رددها مرات، سكت ثم عاد لترديدها، ثم قال بصوت مخنوق بالأسى:

- إن ما سهرنا في بيروت نسهر بالشام، يعني سهرانين، سهرانين، في بيروت أو في دمشق أو في أي مكان، وما داموا جماعة ويصرون على السهر، فهم يصرون على البهجة. هم قوم يعرفون كيف يحيون أما نحن فنعرف جيداً كيف نموت. فنحن نسهر بمفردنا، ونسهر لتتألم ونتوجع ونشكو.

لم يصمت، اجتر حكايته مع عهد، ابنة جبلة، سافر إلى الشام ذات صيف برفقة زملاء، طالت سفرته من إبريل حتى بدايات سبتمبر، وعاد بثلاث ورقات خضراوات من فئة المائة دولار، وجرح في القلب، وحكايات عن مدن بامتداد خريطة سوريا، جاب شوارعها مناديا على بضاعته، وعن بشر عرب وأكراد،

أحب اللاذقية وريفها وشواطئها، وجبله وقراها خصوصا بستان
الباشا، يقول إن عهد هي أجمل زهرة في بستان الباشا، ثم
يصمت، يتنهد ولا يزيد.

* * *

(ك)

كان الزحام شديداً، أحد المارة اصطدم بي. كدت أقع على الأرض لولا أن قبضت على يد محمد الذي انحنى ليلتقط عكازي من الأرض. اعتذر الرجل بسرعة، وهو يواصل سيره أوتوماتيكياً، بدا لي وكأنه روبوت مهموم، سألت نفسي وهل يمكن للروبوت أن يعرف الهم؟، لم أجد جواباً فواصلت سيره وأنا أنظر في الوجوه. أتأملها. كلها مهمومة يعلوها الصدا.

يتعثر العكاز في حصة. يسندني محمد. أضيق بالزحام. أشعر بالاختناق. منهكا أفق حيث أنا، لكن الزحام الشديد يجبرني على مواصلة المسير. فالجنث السائرة تحت الخطى، وإن اعترضت مسيرها بالوقوف سوف تدهسني. وبقي الشعور بالاختناق يلزمني حتى رأيت الضريح، ففاضت عيوني بالدموع.

قبض محمد على يدي، ربتها قائلاً:

- لماذا نلوم أمك إذن؟

كفكت الدمع، وجلست في رحاب الحسين أسمع الخطيب، بعد الصلاة لم أقو على النهوض، وددت البقاء حتى العصر لكن محمد رفض فقلنا راجعين. نحمل هم لقاء الأم، وما قد نفعله في الغد.

ومرة أخرى نعود بدون غريب.

* * *

(ل)

قلت لمحمد:

- إن رزقني الله بأنثى سأسميها أيضاً آفاق.

بسرعة أتاني رده الصادم.

- طبعاً لتعاند الموت الذي اختطف أختها يوم السبوع، لا
تعاند الموت يا أخي، ولا تتحداه فلن تهزمه.

- لا ، ليس عناداً، بل أظنها ستكون البشارة.

* * *

(م)

آفاق عاندتني ولم تجئ.
وضعت أمها ذكراً. أسماه أبى يحيى، فقد أنته البشارة وهو
يسمع القرآن: "يا يحيى خذ الكتاب بقوة"، أخذت يحيى بين
ذراعي. قبلته في جبهته، ابتسمت له لكن سرعان ما غاضت
الابتسامة. بللت وجهه بدموعي فقد خطرت لي سالومي، وهي
تطلب رأسه.

* * *

(ن)

جاء يوم السبت، لم يعد غريب، ولم نجد ما نفعله.
كان لابد أن نفعل شيئاً فذهبنا إلى مركز الجيزة لعل خبراً
أتاهم عن غريب، لم يقدّم الصول من مكانه إلا بعد أن دس محمد
في يده الخمسة جنيهاً صحيحة.

دسها الصول في جيبه بسرعة، ونهض بتثاقل. فتح دفتره
وراح يقلب الصفحات ثم توقف عند الصفحة الأخيرة، تمتع باسم
غريب مرات ثم توقف، أشار بإبهامه إلى السطر الأخير، قال
بفرح مصطنع:

- أخيراً يا غريب أفندي، دوختنا معك، غريب أحمد منصور،
اسمه موجود، ها هو..

صحنا بفرح :

- حقاً اسمه موجود الحمد لله.

لم يرفع إصبعه عن الاسم وكأنه يخشى أن يغادر الصفحة،
أعاد قراءة الاسم وهو يضيف:

- جاءنا صباح اليوم مع الوارد الجديد.

سألته عن المكان الذي صدره، فقال:

- جاءنا بسيارة الترحيلات من قسم شرطة الوراق.

سمعته، فتذكرت على الفور الضابط ذو العينين الخضراوين،
الجالس على كرسيه في مدخل المركز، يضع ساقاً فوق أخرى،
ويرشف القهوة. رمقني أنا وعنتر ثم نفى وجود غريب عنده.

طلبنا من الصول أن يرينا غريباً لكنه طلب الحلاوة أولاً.
حصل على خمسة جنيهات ثانية، فسبقنا إلى غرفة الحجز،
فتحها فرأينا غريباً يجلس القرفصاء. رأنا فنهض وهم بالخروج
إلينا لكن الصول دفعه بغلظة مفاجئة، وأغلق الباب.

سألناه عن تهمة غريب فقال:

- أخذه تحري

- يعنى لم يوجه له اتهام

- وهل قتل قتيلاً؟

- نريد أن نأخذه

- بسيطة، اذهب للضابط واطمناه.

رفض الضابط أن نضمن أخانا، قال إنه لا يستطيع أن
يخرجه قبل عرضه على النيابة المسائية. معنى ذلك أن يظل
غريب هنا حتى منتصف الليل، وقد يبيت ليلة أخرى.

سألنا الصول النصيحة، فأشار بأن نقصد المعلم عاشور،

فالمضابط لا يرد له كلمة وهو الوحيد القادر على إخراج غريب من الحجز. هرعنا إلى المعلم عاشور. لم يخذلنا الرجل، نادته زوجته فغادر حجرته وهو يستكمل لبس جلبابه، أحكم العمة فوق رأسه وهو يسمع الحكاية، أسدل العباءة الجوخ على كتفيه وهو يطلب من زوجته إحضار مفاتيح السيارة.

وفي الطريق عاتبنا لأننا لم نكن من مؤيديه في الانتخابات السابقة وحتى لم نهتئ بالنجاح. وأيضا لأننا تأخرنا في طلب مساعدته. قبل أن يوقف السيارة خارج المركز أكد على عدم زعله مننا، نحن على الأقل كنا واضحين ولم نخدعه كما فعل البعض ممن خانوه، أكلوا طعامه وأخذوا فلوسه ثم انتخبوا خصمه.

غادرنا السيارة ونحن نعلن مبايعتنا المسبقة له في الانتخابات القادمة. سبقنا داخلاً إلى المركز. رأيناه يدخل حجرة المأمور دون استئذان، أوقفنا الشرطي الواقف ببابها، أبقانا في الخارج رأيينا المأمور يعانق المعلم عاشور ثم ينادى الشرطي.

سمعناه يطلب إحضار القهوة بسرعة مؤكداً على أن يكون وشها كثيفاً، رأيناه يقرب كرسيه من مكتبه فيجلس المعلم. دقائق قلائل ويرجع الشرطي بصينية القهوة.

المأمور يسمع الحكاية، يأمر الشرطي فيخرج، يغيب لدقيقتين ثم يعود، ثوان ويتبعه شرطي ثان، صاحباً غريب.

ولما فرغ فنجان القهوة نهض المعلم عاشور. صافح المأمور، ثم خرج لنا بغريب الذي اغرورقت عيناه بالدموع.

* * *

(هـ)

فى السىارة بكى غرىب؁ لامنا لأننا لم نفعل له شىئاً طيلة هذه الأيام الثلاثة العصىبة. قبله أعاد المعلم عاشور لومنا لأننا لم نلجأ له منذ اليوم الأول. قال إنه كان يستطىع إنهاء المشكلة بالتلفون. ضاحكا وعده محمد بأن نفعل ذلك فى المرة القادمة.

توقفت السىارة أمام بابنا. قفز غرىب. وعلت الزغارىد. تجمع الجىران مهنئىن. ولوح المعلم عاشور بىده لىحىى الواقفىن قبل أن ىنطلق بسىارته مبعدا.

* * *

(9)

تحلقنا حول غريب. أمي ضمته إلى صدرها وعادت البكاء. طالبتنا بأن ننتخب المعلم عاشور. قال أبي إنه لا يعلم سر الثراء المفاجئ للرجل الذي كان معدماً قبل عشر سنوات. قلت لعل بغلة العرش زارته، ذكرتنا أمي بالمعروف الذي أسداه لنا الرجل، لنكف عن الخوض في سيرته. انشغلنا عن سيرته بسؤالنا غريباً عم حدث؟ سمعناه يجيب:

- يوم الأربعاء، وعلى غير العادة نفدت البضاعة مبكراً. غادرت السوق قبل آذان الظهر. لسوء حظي تأخر الأتوبيس وعند محطة الأتوبيس توقف الضابط ليملاً سيارته، يملأها بأي شيء، يملأها بشرا لا يراهم بشرا.

- ألم تكن معك بطاقتك؟

- كلنا كانت معنا البطاقات. أبرزناها له لكنه أصر على القبض علينا، دونما سبب، قال اشتباه، ولم يسجل أسمائنا في دفتر الأحوال، ولم يعرضنا على النيابة.

خلعت أُمي طرحتها. رفعت يديها للسماء ثم تضرعت، دعت الخالق القادر بأن يحرق قلب أُمه عليه، غريب الذي كان يتجنب النظر إليها، كان يجلس القرفصاء، وهو يواصل حكاياته عن تغريبة الأيام الثلاثة، وضحك هو يحكى عن رجل عجوز. ارتابوا في الكيس البلاستيكي الأسود الذي يحمله. فتشبه المخبرون فوجدوا به عدة لفات قمر الدين. أخذوها فثار وطالب الضابط أن يفرج عنه ويرد له قمر الدين. ظل يطالب بذلك حتى جاءته نوبة الربو مساء الجمعة. خشي الضابط أن يموت العجوز في الحجز فأفرج عنه، ثم قام بترحيل الباقيين صباح السبت.

* * *

(٥)

كان المساء مناسباً للاحتفال بغريب ويحيى معاً، ذبحت أمي ذكر البط المزغط الذي ادخرته لإفطار أول يوم من رمضان. تسميه يوم الرفرافة. يضحك غريب ويسألها عن سر التسمية. فتقول:

- كل المسلمين يذبحون البط المزغط في أول أيام رمضان، والبط المذبوح يرفرف في كل البيوت، من أيام جدي وستي وأول إفطار في رمضان يجب أن يكون بطاً. ضحكنا وقال أبي:

- ما فرقتش كثير، كلها نهار واحد ما بين أول سحور وأول إفطار.

ضحكنا، وجلسنا في انتظار اكتمال نضج ذكر البط، كان غريب يحمل يحيى، يهدده، يعيد حكاية الرجل العجوز الذي سلبه المخبرون قمر الدين. تقترح أمي أن يبحث عن عمل آخر يصونه من المرمطة في الأسواق، ويطالبه محمد بأن يبحث عن

وظيفة بدلا من ذلك العمل الذي يعرضه لمضايقات الشرطة وكأنه قاتل أو لص، ويفاجئنا غريب، يعلن عن قراره بالسفر إلى أي مكان.

نصحته ألا تكون قراراته ردود أفعال، ونصحنا أبي أن نصمت. استعجل الطعام، وقال للمجد:

- افتح يا بني التلفزيون نشوف المسحراتي ولا أي حاجة؟

بكي يحيى فحمله غريب إلى أمه، رصت زوجة أخي الأطباق على الطبلية فتحلقنا حولها، أوليت ظهري للفيلم. سبق أن شاهدته في السينما وكان غريب معي، يومها خرج من السينما وهو يردد بأسى مع المطرب:

- هلفوت ومالكش لزمة وماحدش داري بيكا

جلست أمي إلى جوار غريب. وضعت أمامه ذكر البط. وهي تقسم عليه بأن يأكله بأكمله. ضحكنا. تذكر محمد أن يسأل غريب عن مصير قمر الدين. هل استرده صاحبه أم تركه للمخبرين؟ نهشته أمي:

- لا تذكره بما حدث. سيبه يأكل، بالله عليك

عدنا نضحك لكن ضحكتي غارت لما انطلق صوت المغنى في الفيلم يسألني عن معنى كلمة وطن، ولما لم أعطه جوابا، راح هو يقترح:

- يعني أرض؟

حدود؟

مكان؟

ولا حالة م الشجن؟

ولا حالة م الشجن؟

أبو النمرس

من 10 - 5 - 1999

إلى 19 - 3 - 2000

أحمد رجب شلتوت



مواليد 17 أبريل 1962، حاصل على بكالوريوس تجارة من جامعة القاهرة. عمل كبيراً للباحثين في وزارة الشباب والرياضة سابقاً، وأحيل إلى المعاش في 17 أبريل 2022. بدأ النشر في الصحف والمجلات منذ عام 1985، وعمل محرراً ثقافياً بوكالة الصحافة العربية من 1994 حتى 2001 ثم من 2016 حتى 2021، كما كان مسؤولاً عن القسم الثقافي بموقع الأزمة الإلكتروني من 2009 حتى 2012. نشر مقالاته في جريدة العرب اللندنية وجريدة القدس العربي والزوراء العراقية والصبح العراقية.

الجوائز والتكريمات

1. فاز بالمركز الأول في مسابقة جريدة الشعب للقصة القصيرة
1990
2. فاز بالمركز الأول في مسابقة نادى القصة للقصة القصيرة
1996
3. فاز بالمركز الثاني في مسابقة الهيئة العامة لقصور الثقافة
للمسرحية الطويلة 1996
4. فاز بالمركز الثاني في مسابقة ساقية الصاوي في القصة
القصيرة جدا عام 2009
5. فاز في مسابقة جمعية الأدباء في الرواية عام ، 2009 ، وفي
القصة القصيرة 2010
6. فاز في مسابقة إحسان عبد القدوس في الرواية عام 2010
عن رواية " حالة شجن "
7. كما فاز أكثر من مرة في مسابقات الهيئة العامة لقصور
الثقافة ومسابقات وزارة الشباب في القصة القصيرة
والمسرحية والبحث.

صدر له:

- العائد إلى فرحانة، مجموعة قصصية، وكالة الصحافة
العربية 1996
- السعار والشذى، مجموعة قصصية 1997
- دم العصفور، مجموعة قصصية، الهيئة العامة لقصور
الثقافة 2002

- زوال، رواية قصيرة، 2003
- العش للعصافير، مجموعة قصصية للأطفال، كتب عربية 2005
- بندق يجد الكنز، مسرحية للأطفال 2005
- مدارات روائية، قراءات، 2018
- الظل والقربان مجموعة قصصية 2019
- رشقات من النهر، قراءات، وكالة الصحافة العربية 2019
- الرواية فن البحث عن الإنسان، قراءات، وكالة الصحافة العربية 2019
- ربيع البنفسج قراءات في الرواية العربية، وكالة الصحافة العربية 2020
- فاتحة لصاحب المقام، قصص قصيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2020
- حالة شجن، رواية قصيرة، الدار الثقافية التونسية 2020 ، طبعة ثانية عن وكالة الصحافة العربية 2023
- العزلة ليست هي الوحدة، قراءات، وكالة الصحافة العربية 2021
- حياة بين الرفوف، قراءات، وكالة الصحافة العربية 2022
- والرواية غواية، قراءات، وكالة الصحافة العربية 2023
- فاطمة لا ترقص التانجو، مختارات قصصية، 2025 (فازت بجائزة اتحاد كتاب مصر للسرد القصصي عن عام 2025)
- النهار والشجن إطلالات على عالم أسامة أنور عكاشة، 2026